

الفصل الثاني

وسطية القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته

تمهيد:

إن المتأمل في كتاب الله تبارك وتعالى وما جاء فيه عن دعوات الرسل وما أنزل عليهم من الكتب ليخرج بحقيقة واحدة، أطبق عليها جميع الرسل، وأنزلت بها جميع الكتب السماوية، هذه الحقيقة هي: الدعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، فهي أساس الرسالات وعمودها الفقري، وهي القاسم المشترك بينها، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع والمناهج فما من نبي أرسل ولا كتاب أنزل إلا وكان أول ما يدعو إليه هو توحيد الله تبارك وتعالى.

يقول الله ﷻ في تقرير هذه الحقيقة:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦) وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

وإذا استعرضنا القرآن الكريم في حديثه عن رسل الله عليهم الصلاة والسلام نجد أن كل رسول قال لقومه: ﴿يَقْوُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (المؤمنون: ٢٣، والأعراف: ٦٥، ٧٣، ٨٥). ابتداء من أولهم نوح ﷺ، وانتهاء بخاتمهم نبينا محمد ﷺ.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، وهو الإسلام وشرائعهم مختلفة كما قال المصطفى ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعملات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْمَ﴾ (٤٧٨/٦).

قال الحافظ ابن حجر: (ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل: المراد أن أزمتهم مختلفة)^(١).

وقال الحافظ ابن كثير في معنى الحديث: (أي: القدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومنهاجهم)^(٢).

لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨).

وكل الأنبياء أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا قومهم للإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْأَمْرُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩) ﴿وَمَنْ
يَتَّبِعْ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وهذا يدل على أن دين جميع الأنبياء واحد وهو الإسلام، ودعوتهم واحدة وهي الدعوة لتوحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة، على هذا مضى رسل الله والمسلمون من أممهم، ولكن قومهم غيروا وبدلوا بعدهم وحرفوا وأدخلوا في دين الله ما لم يأذن به الله، وشمل التحريف والتبديل أساس دعوة الرسل، وهو التوحيد. وما يتعلق بذات الله ﷻ من الأسماء والصفات فتفرقت الأمم في ذلك ما بين مُفْرِطٍ، ومُفَرِّطٍ، وغال ومقصر لإعراضهم عن هدي المرسلين واتباعهم غير سبيل المؤمنين.

ومن أعظم الأمم اختلافاً وضلالاً في هذا الباب، أمما اليهود والنصارى، فاليهود غلب عليهم التقصير والتفريط والجفاء، وإن كان لديهم غلو وإفراط، والنصارى غلب عليهم الغلو والإفراط وإن كان وقع منهم تفريط وتقصير في جوانب. والمسلمون اتبعوا الرسل، فهدوا لأقوم السبل، فكان قولهم هدى بين ضلالتين، وحقاً بين باطلين، فهو كلبن سائغ يخرج من بين فرث ودم. وإليك البيان في ما ذهبت إليه كل من هذه الأمم الثلاث في هذا الباب^(٣).

(١) فتح الباري (٦/٤٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/١٨٣).

(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٤٢ - ٢٤٣).

المبحث الأول موقف أمة اليهود

عرفنا مما تقدم أن أمة يهود، أمة غلب عليها طابع التفريط والتقصير في هذا الباب، بل هو الغالب عليهم في أكثر الأبواب:

ولعل من أبرز مظاهر تفريطهم وتقصيرهم في هذا الباب أمرين:

الأول: اتخاذهم الأنداد لله ﷻ، وعبادة الأصنام.

والثاني: إغراقهم في تشبيه الخالق بالمخلوق، ووصف الله ﷻ بالنقائص التي لا تليق إلا بالمخلوق.

فأما الأمر الأول: وهو اتخاذهم الأنداد وعبادة الأصنام، فإن القوم لما أنقذهم الله من عدوهم فرعون وجنوده، وجاوز بهم البحر مع موسى ﷺ، وأغرق عدوهم على مشهد منهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، مالت نفوسهم إلى الوثنية وطلبوا موسى ﷺ أن يجعل لهم مثلها: يقول الله جل وعلا في ذلك: ﴿وَجَوَزْنَا بِبِئْرِ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ (الأعراف: ١٣٨) ثم بيّن لهم موسى ﷺ ضلال أولئك وبطلان عملهم، وأن الإله الحق هو الله الذي فضلهم على العالمين فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا فِيهِنَّ وَنَبِلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ بَنِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ (الأعراف: ١٣٩ - ١٤٠).

اتخاذهم العجل في زمن موسى:

لم يلق نصح موسى ﷺ وتذكيره ووعظه من القوم قلباً واعياً أو أذناً صاغية، فما أن تركهم ﷻ وذهب إلى ربه يناجيه، حتى اتخذوا العجل من بعده إلهاً من دون الله قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ قَوْمٌ مِّنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً لَّهُمْ خَوَّارٌ آلَهُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٦٨﴾ (الأعراف: ١٤٨) ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٦٩﴾ (البقرة: ٥١) ثم بين تعالى من تولى كبر إضلالهم وصناعة العجل لهم، فقال: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿١٧٠﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَا نَبَأَ لِمُوسَىٰ وَسِعَدًا حَسْبًا

أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجَلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّارِعِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى قَتَلْتَهُ ﴿٨٨﴾ (طه: ٨٥ - ٨٨).

فبين تعالى أن الذي صنع لهم العجل هو السامري، ومن العجيب أن كتاب العهد القديم ينسب هذا العمل الشنيع إلى هارون ﷺ كما جاء في (سفر الخروج)^(١).

ولقد تكرر من القوم، اتخاذ الأصنام وعبادتها بعد موسى ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: (وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات...)^(٢).

وفي كتاب العهد القديم، إشارات كثيرة لعبادتهم الأوثان والأصنام، من ذلك:

١ - ما جاء في (سفر الملوك الثاني) عن عودتهم لعبادة العجل في عهد رحبعام^(٣) يقول السفر: (... وعمل عجلي ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر ووضع واحداً في بيت أبل، وجعل الآخر في دان)^(٤).

٢ - عبادتهم الأفعى وبعض التماثيل:

يذكر (سفر الملوك الثاني) عن الملك حزقيال أنه: (أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها...)^(٥).

على أن موسى ﷺ لم يصنع تماثلاً نحاسياً لحية، وإنما كانت عصاه تنقلب إلى حية تسعى معجزة له، ثم تعود سيرتها الأولى بعد ذلك عصاً يتوكأ عليها ويهشُّ بها على غنمه، لكن لعل بني إسرائيل صنعوا ذلك ونسبوه إلى موسى ﷺ لتروج عند الناس ويعظموها ويعبدوها.

(١) انظر: العهد القديم، سفر الخروج من إصحاح (٣٢) فقرة (١ - ٦).

(٢) - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/٢٤٧).

(٣) هو رحبعام بن سليمان ﷺ ملك بعد أبيه.

(٤) سفر الملوك الأول، إصحاح (١٢)، فقرة (٢٨ - ٢٩).

(٥) إصحاح (١٨)، فقرة (٤).

وأما الأمر الثاني: وهو قولهم بالتشبيه ووصف الخالق بصفات المخلوق:

وهذا أمر مشهور عنهم، حتى عده الشهرستاني^(١) من طباعهم الملازمة لهم، فإن القوم أسرفوا في تشبيهه الله ﷻ بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالنقائص التي تختص بالمخلوق.

ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك، وكتابهم الذي بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك، ونحن نذكر فيما يلي نماذج من أقوالهم التي شبهوا فيها الخالق ﷻ بخلقه:

١ - فمن ذلك: (وصفهم الله بالفقر).

وهي صفة لا تليق بخالق البشر، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياء عندهم، يقول ﷻ في ذلك: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكَ سَكَتُكَ مَا قَالُوا وَتَقَاتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُو قُوَّةٍ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ (آل عمران: ١٨١).

٢ - ومن ذلك: (وصفهم له بأن يده مغلولة).

قال ﷻ ذاكراً قولهم هذا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُوقِئُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (المائدة: ٦٤).

٣ - وصفوه بأنه: (يحزن، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذي خلقه، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنني حزنت أني عملتهم)^(٢).

٤ - ووصفوه: (بالتعب والاستراحة) تعالى عن ذلك.

جاء في (سفر الخروج): (أذكر يوم السبت لنقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع

(١) انظر: الملل والنحل (١/١٠٦)، هو أبو الفتح عبد الكريم توفى (٥٤٨هـ).

(٢) إصحاح (٦)، فقرة (٥ - ٨).

عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمنتك، وتريلك الذي داخل أبوابك؛ لأن في ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب اليوم السابع وقدهس^(١) وفي سفر (التكوين): (فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل)^(٢).

٥ - وقالوا: (بأنه إنسان وصارع يعقوب عليه السلام إلى الفجر).

ففي (سفر التكوين): (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب فخذه فانخلع حتى فخذ يعقوب في مصارعة معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت... فدعا يعقوب اسم المكان فينثيل قائلاً: لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي)^(٣).

٦ - وصفوه بما يفيد أنه: (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم).

ففي (سفر الخروج): (أن الرب كلم موسى عليه السلام وقال له فيما قال: فإنني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر)^(٤).

٧ - أنهم: جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء.

جاء في (سفر التكوين): (وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض وولد لهم

(١) إصحاح (٢٠)، فقرة (١ - ١٧).

(٢) إصحاح (٢)، فقرة (١ - ٢).

(٣) إصحاح (٣٢)، فقرة (٢٤ - ٣٠).

(٤) سفر الخروج، إصحاح (١٢)، فقرة (١٢ - ١٣).

بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا^(١). وحكى الله ﷻ عنهم أنهم جعلوا له ابناً فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠).

المبحث الثاني موقف النصارى

لقد ضلت أمة النصارى في هذا الباب ضلالاً بعيداً، ولعل أمة من الأمم لم تضل في دينها وربها وإلهها كما ضل الذين قالوا إنا نصارى. ولا عجب فالضلالة صفتهم المميزة لهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال»^(٢). قال ذلك في تفسير قول الله ﷻ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) ولعل من أعظم ضلالهم في باب توحيد الله وصفاته أنهم:

١ - شبهوا المخلوق بالخالق:

وأضفوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله ﷻ ولا يصلح إلا له سبحانه فوصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: (إنه يخلق، ويرزق، ويغفر، ويرحم، ويتوب على الخالق ويشيب ويعاقب)^(٣) وهذه الصفات من خصائص الربوبية، وصفات الألوهية التي لا تكون إلا لله سبحانه.

وذلك أن هذه الأمة الضالة، جعلت المسيح ﷺ هو الله، كما ذكر الله ﷻ قولهم هذا وكفرهم به فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ١٧) وتارة جعلوه ابناً له ﷻ عما يقول المبطلون، وعن قولهم هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَلَّهِنَّ اللَّهُ النَّارَ يُوقِنُونَ﴾ (التوبة: ٣٠).

(١) إصحاح (٦)، فقرة (١ - ٢).

(٢) الترمذي: كتاب التفسير، باب من سورة الفاتحة (٢٠٤/٥).

(٣) الوصية الكبرى، لابن تيمية، (٤).

وقالوا تارة أخرى إنه شريك لله وجزء من ثلاثة يتكون منها الإله، كما ذكر الله قولهم هذا وكفرهم به أيضاً فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَبَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٣) فألوهوا المسيح ﷺ وجعلوه شريكاً لله، وعبدوه من دونه، بل وصفوه بأخص صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة؛ وبذلك فاقوا عباد الأصنام والأوثان الذين قالوا في معبوداتهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: ٣) ولم يضيفوا إليها شيئاً من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك، بل أقروا بكل ذلك لله وحده كما قال ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ (يونس: ٣١) ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ (العنكبوت: ٦١) ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (العنكبوت: ٦٣) ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (لقمان: ٢٥).

أما هؤلاء فلئن سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن المسيح، فهو عندهم الإله الخالق المحي المميت، باعث الرسل، ومنزل الكتب، حكى الإمام ابن القيم عنهم أنهم قالوا (وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة هكذا بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم وبعثهم ومرسلهم وناصرهم، ومؤيدهم ورب الملائكة)^(١).

وفي قرارهم الذي قرروه في (مجمع نيقية)^(٢) الذي عقده سنة ٣٢٥م وسموه بـ(الأمانة) ونصوا فيه على ألوهية المسيح ﷺ، وصرحوا بأنه هو الذي سينزل للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم فقالوا: (وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم) وقالوا: (وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء)^(٣).

(١) هداية الحيارى (٢٦٩).

(٢) سمي بذلك نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال إسطنبول التي اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من قراراتهم القول بالهية المسيح.

(٣) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، (٢٨/٢).

يقول أحد قساوستهم في رسالة إلى أبي عبيدة الخزرجي^(١)، مصرحاً بالوهية المسيح وأنه خالق السموات والأرض: (أما بعد حمد الله الذي هدانا لدينه، وأيدنا يمينه، وخصنا بابنه ومحبيه، ومد علينا رحمته بصلبه المسيح إلها، الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، والذي أمدنا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وقانا...^(٢)).

وقال مخاطباً أبا عبيدة داعياً إياه للإيمان بالوهية المسيح الخالق: (وما عقائدكم كلها إلا حسنة، وكان عندكم عدل كثير في أصل دينكم، وخير شامل، فلو آمنتم بالمسيح وقتلتم: إنه هو الله خالق السموات والأرض لكمل إيمانكم)^(٣).

وهكذا نرى النصارى يصفون المسيح ﷺ بصفات الربوبية المختصة برب العالمين ﷻ، وهذا أمر انفردوا به من بين العالمين، ولم يقتصر الأمر على المسيح ﷺ، بل جعلوا لغيره من الخلق بعض صفات الله تبارك وتعالى، فجعلوا مريم ﷺ آلهة؛ لأنها أم الله بزعمهم، ووصفوها بالجلوس على العرش مع الله ﷻ، وسألوها ما لا يسأل إلا من الله ﷻ.

يقول الإمام ابن القيم: (وأما قولهم في مريم: فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله ووالدته في الحقيقة... وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه، قال: والنصارى يدعونها، ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب)^(٤).

وهذه الأمور لا يملكها إلا الله ﷻ ولا يسألها إلا هو سبحانه، ولقد أشار القرآن الكريم إلى قول النصارى بالوهية مريم في قوله تبارك وتعالى مخاطباً عيسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَكُونُ لِي مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ وَإِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ (المائدة: ١١٦).

- (١) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي الساعدي كان مشهوراً بالذكاء والنبل، مات بفاس بالمغرب عام ٥٨٢هـ.
- (٢) أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام، ص (٧٢).
- (٣) نفس المصدر (٨٧).
- (٤) هداية الحيارى (٢٦١).

بل خصوا كنائسهم وبابواتهم ومطارتهم ببعض خصائص الله ﷻ كمغفرة الذنوب ودخول الجنة، والحرمان منها ففي المجمع الثاني عشر من مجامعهم المعقود في سنة ١٢١٥م قرروا: (أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء)^(١) وبناء على هذا القرار قامت الكنيسة بإصدار ما يسمى بـ(صكوك الغفران).

يقول أحد قساوستهم في هذا: (وقد جعل الله في أيدي المطارين ما لم يجعله في يد أحد، وذلك أن كل ما يفعلون في الأرض يفعل الله في السماء، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات ويعفون عن السيئات بأيديهم صلاح الأحياء والأموات)^(٢) ماذا أبقوا لله ﷻ!!؟

٢ - ومن ضلالهم في هذا الباب أيضاً أنهم سبوا الخالق ﷻ وتنقصوه وذلك من

وجهين:

الأول: قولهم إنه اتخذ ولداً، حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠) وقد نزه الله ﷻ نفسه عن اتخاذ صاحبة والولد فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَمَسَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (البقرة: ١١٦) وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۗ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَيْرُ الْمَجَالِ هَذَا ۗ إِنَّ دَعْوَى الرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ﴾ (مريم: ٨٨-٩٣)، فأنكر قولهم، ونزه نفسه عن أن يكون له ولد.

وبين سبحانه في آية أخرى أن الولد لا يكون إلا من صاحبة، وهو سبحانه لا صاحبه له، فقال ﷻ: ﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ يَكْفِي شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ (الأنعام: ١٠١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: الولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة ولا ولد...)^(٣).

وقد بين سبحانه في الحديث القدسي، أن من نسب إليه اتخاذ الولد فقد شتمه

(١) أبو زهرة، النصرانية (١٤٨).

(٢) أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام، ص(٩١).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/٣٠٢).

وسبه بقوله ذلك، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «قال الله كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقول: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولداً»^(١).

الثاني: زعمهم أن الله تعالى عن قولهم علواً كبيراً (نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب)^(٢).

وقال القس القوطي في رسالته إلى أبي عبيدة الخزرجي يشرح فيها مذهبه: (...). فهبط بذاته من السماء والتحم في بطن مريم العذراء البتول أم النور فاتخذ لنفسه منها حجاباً كما سبق في حكمته...^(٣).

يقول الإمام ابن القيم: (...). إن هذه الأمة - أي: النصارى - ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة.

أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبداً له.

والثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة وأقام تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو^(٤) وقد علت أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمص الثدي... ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه وشفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين، وألبسوه إكليلاً من الشوك وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا هو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له، ولعمر الله إن هذه مسبة الله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم...).

وذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه قال فيهم: (أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد

(١) البخاري، كتاب التفسير، باب «وقالوا اتخذ الله ولداً...» (١٦٨/٨)، رقم (٤٤٨٢).

(٢) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، (٢٨/٢).

(٣) أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام، ص (٨٣ - ٨٤).

(٤) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغانط. انظر: لسان العرب (٣٠٦/١٥).

سبوا الله ﷻ مسبة ما سبه إياها أحد من البشر^(١).

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من قول معاذ بن جبل رضي الله عنه^(٢)

المبحث الثالث موقف المسلمين

أما هذه الأمة المسلمة فقولها في هذا الباب هو ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فأمنت بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا إله غيره، ولا رب سواه هو رب العالمين وخالق الكون ومدبره: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤) ونزهوه سبحانه عن الأنداد، واتخاذ صاحبة والأولاد، تصديقاً لقوله تعالى عن نفسه: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وقالوا كما قال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَنْجِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن: ٣) وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَكُودٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَكُودٌ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَكُودٌ ۝﴾ (الإخلاص: ١-٤).

ووصفوه سبحانه بصفات الكمال والجلال، ونزهوه عن جميع صفات النقص، كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات...^(٣) ولم يصفوه إلا بما وصف به نفسه سبحانه، أو وصفته به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من غير تعطيل ولا تمثيل لهم فلم يشبهوه بشيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته - كما فعل اليهود - بل قالوا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١). ولم يشبهوا شيئاً من خلقه به، لا في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيراً أو ندأً أو مثيلاً أو شريكاً في شيء من خصائص ألوهيته وربوبيته - كما صنع النصارى - بل نزهوه سبحانه عن الشبيه والنظير والكفاء والند والمثيل^(٤).

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/٢٧٨).

(٢) الجواب الصحيح (٢/٥٢).

(٣) منهاج السنة لابن تيمية (٥/١٦٩).

(٤) وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٥٨).

وإذا تأملت سورة الإخلاص وجدت بها صفات الكمال لله ﷻ وهو أنه المنفرد بها وحده دون سواه قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ ۝﴾ (الإخلاص: ١-٤) ففي هذه السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق^(١).

وذكر أبو هريرة في معنى الصمد: (أنه المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد)^(٢).

ومن خلال قول أبي هريرة في معنى الصمد يدل على الإثبات والتنزيه، فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يصمد إليه أي: يرجع إليه في كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شيء، والفعل لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه، إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها فالمرجع والمراد إليه سبحانه^(٣).

وأما التنزيه، فبوصفه تعالى بأنه غني عن كل شيء فلا افتقار فيه بوجه من الوجوه، لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس قبله شيء وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولا في بقائه فإنه الذي يطعم، ولا في أفعاله فلا شريك ولا ظهير^(٤).

كما أن وصفه سبحانه بأنه أحد صمد يدل على اتصافه بالكمال المطلق وكذلك يدلان على معنى آخر وهو نفي الولادة والتولد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء فلا يأكل ولا يشرب ﷻ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغْبَرَ اللَّهُ أَنْحَدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُهْرِتُ أَنْ أَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَسْمَ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ (الأنعام: ١٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ۝﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٨) فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له

(١) علو الله على خلقه. بتصرف (٢٨).

(٢) تفسير القرطبي (٢/٢٤٥).

(٣) علو الله على خلقه، بتصرف (٢٨ - ٢٩).

(٤) المرجع السابق (٢٨ - ٢٩).

ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة .

والتولد إنما يكون من شيئين قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾﴾ (الأنعام: ١٥١) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ (الإخلاص: ٤) وفي هذا سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ (الأنعام: ١) أي يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلاً .

ومثال هذا قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ (مریم: ٦٥) أي لا شيئاً يساميه ولا ندأً ولا عدلاً ولا نظيراً له يساويه، فأنكر التشبيه والتمثيل وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص^(١).

المبحث الرابع

مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن

لا ريب أن مفهوم الإيمان عندما نصل إليه من خلال القرآن وتوضيح سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام هي الوسطية بعينها في هذا الباب، وهي الاستقامة والاعتدال، لذلك حرصت على إيضاح مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن والسنة خصوصاً وأن الناس قد وقعوا في الإفراط والتفريط لبعدهم عن الوحيين الكتاب والسنة .

أولاً: في حد الإيمان وتفسيره

إن معرفة حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، يجب أن تتقدم أحكامها: فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها، فمن حكم على أمر من الأمور - قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره - أخطأ خطأ فاحشاً .

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: (التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهراً وباطناً، فهو تصديق القلب واعتقاده

(١) علو الله على خلقه، (٢٨ - ٣٤) للدويش .

المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله^(١).

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله، فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى: من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته، وهو من أعظم أصول الإيمان، وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة - وهو -: التأله والتعبد لله ظاهراً وباطناً - من أصول الإيمان والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان^(٢).

وكذلك الإيمان بجميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان. كما أن أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة كل هذا من أصول الإيمان ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، لأنه متى فات شيء من ذلك، حصل من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب - بحسبه.

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحديد: ١٩).

والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء في الدنيا، وفي منازل الآخرة، وأخبر في هذه الآية، أن من حقق الإيمان به ويرسله نال هذه الدرجة، ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة، كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم»؛ فقالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده؛ رجال

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، للسعدي (٩).

(٢) انظر المرجع السابق (١٠).

آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين»^(١).

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله، فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين، وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه من الانقياد والاستسلام؛ وأثنى على من قام به، فقال في أعظم الآيات الإيمان: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِنْزَاهًا وَسَمِيحًا ۚ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة: ١٣٦).

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله؛ والإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ كما أثنى على المؤمنين في آخر السورة بالقيام بذلك، فقال: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة: ٢٨٥).

فأخبر: أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء؛ بل آمنوا بهم جميعاً، وبما أوتوه من عند الله؛ وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا؛ وطلبوا من ربهم: أن يحقق لهم ذلك وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان، وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء عيسى وغيره أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا ءَأَمَّنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُفِنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (آل عمران: ٥٣) فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم؛ وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به: قولاً وعملاً واعتقاداً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٠٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (الأنفال: ٢-٤).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٥٦)، ومسلم كتاب الجنة، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف رقم (٢٨٣٠).

يقيمون الصلاة: فرضها ونفلها، ظاهراً وباطناً، ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة، ومن كان على هذا الوصف فلم يبق من الخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً.

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً، ثم ذكر ثوابهم الجزيل - المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون: ١ - ١١).

فسر الله الإيمان في هذه الآيات بجميع هذه الخصال فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿١﴾ إلى آخر الآيات المذكورة - فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً، ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات، وبتكميلهم للإيمان استحقوا أن يكونوا ورثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات؛ كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات. وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة، ويرتّب على ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها؛ وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف^(١).

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وفضول المباحات، ومقتصدون وهم: الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرمات، وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِنُ اللَّهُ

(١) انظر: التوضيح والبيان، ص(١٦).

ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ (فاطر: ٣٢) وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف، لئلا يظن الظان أن الإيمان يكتفي فيه بما في القلب فكما في القرآن من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة: ٢٧٧) ثم يذكر خيراً عنهم، والأعمال الصالحة من الإيمان فمن ادعى أنه مؤمن: وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، وترك المحرمات فليس بصادق في إيمانه وهذا من وسطية القرآن واستقامته واعتداله وحكمته في هذا الباب.

كما يقرب بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (يونس: ٦٢ - ٦٣) فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان، ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كما وصف الله بذلك خيار خلقه بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّا فِيكُمْ رَسُولٌ اللَّهُ لَوْ بَطِغْتُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَعْتِمُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ (الحجرات: ٧-٨) فهذه أكبر المنن؛ أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

كما ثبت في الصحيح من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال رضي الله عنه: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار»^(١) فذكر أصل الإيمان الذي هو محبة الله ورسوله؛ ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله مقدمة على الجميع، وذكر تفريعها: بأن يحب الله، ويبغض الله فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحباب الله واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

(١) رواه مسلم، شرح النووي، كتاب الإيمان، باب الحياء شعبة الإيمان (٦/٢).

وأخبر في هذا الحديث أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأعراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة، فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً - فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره - واجتهد في متابعة الرسول ﷺ وقدم متابعتة على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها، من كان كذلك فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه، وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ (الأنعام: ١٣٢).

وكذلك في الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة؛ أعلاها قول: لا إله إلا الله؛ وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان». وهذا إخبار صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته وهو قول: لا إله إلا الله اعتقاداً وتألهاً وإخلاصها لله، وبين أدناه وهو إمطة العظم والشوكة وكل ما يؤدي عن الطريق، فكيف بما فوق ذلك: من الإحسان وذكر الحياء والله أعلم: لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيح كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب - المذكورة في هذا الحديث - هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وهذا - أيضاً - صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب واتصاف العبد بها أو عدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كبيراً، فمن زعم: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحس مع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى^(١).

والانقياد لحكم الله ورسوله من علامات الإيمان قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥) فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه، وينقادوا له انقياداً وينشروا لحكمه، وهذا شامل في تحكيمه في أصول الدين وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية والأحكام الجزئية^(٢). وفي صحيح البخاري عن أنس مرفوعاً: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه

(١) انظر: التوضيح والبيان (٢٣).

(٢) انظر: التوضيح والبيان (٢٣).

ما يحبه لنفسه»^(١) وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامه فإنه من الإيمان، ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن بالإيمان الواجب؛ بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه^(٢).

وفي صحيح مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب^(٣) قال: قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً»^(٤).

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأفضليته عليه، وأن يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن، حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له واصطفاه له، ويرضى بمحمد ﷺ نبياً، فهو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال، وأتمه وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته واتباعه من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤). قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم الرؤوف الرحيم؛ الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم، وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله، واقتداؤه برسوله ﷺ ومحبته وأتباعه؛ وهذا علامة محبة الله؛ واتباعه تتحقق المحبة والإيمان. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

وفي صحيح مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: «يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله،

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه (١/١١).

(٢) انظر: التوضيح والبيان (٢٤).

(٣) هو العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي القرشي أبو الفضل عم النبي ﷺ، أسلم قبل عام الفتح، وقدمه عمر في صلاة الاستسقاء، وتوفي عام (٣٢هـ).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب من رضي بالله وبالإسلام وبمحمد ﷺ (١/٦٢).

ثم استقم^(١).

فبين ﷺ بهذه الوصية الجامعة أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً، ثم استقام عليه قولاً وعملاً وفعالاً وتركاً، فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له فلاح الدارين. وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان كما جاء في القرآن، ووضحته أحاديث سيد ولد عدنان، عليه أفضل الصلاة والسلام، يتضح لنا مفهوم الإيمان بعيداً على من أنكره جملة كالملاحدة، أو انحرف في فهم حقيقته كالفلاسفة، أو حرفوه عن أصله كاليهود أو ضلوا عن تصور معانيه والوقوف على ماهيته كالنصارى، وبذلك يتضح لنا مفهوم الإيمان ووسطية واستقامة واعتدال القرآن في عرضه.

وابتعدت عن أقوال من وقع في البدع في حقيقة هذا الجانب من المعتزلة والخوارج والمرجئة والجهمية، واكتفيت بقول واعتقاد أهل السنة والجماعة الذين هم الصحابة رضي الله عنهم، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم^(٢).

وقد بين النبي ﷺ أن النجاة لا تكون إلا لمن كان على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ومن تابعهم إلى يوم الدين، قال رسول الله ﷺ: «... وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا واحدة» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(٣).

ثانياً: منهج القرآن في الأمور التي يستمد منها الإيمان:

بما أن الإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ لذلك جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما أنه له أسباب تضعفه وتوهيه.

والمواد التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل، أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها،

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (٦٥/١).

(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١١٣/٢).

(٣) رواه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦/٥) رقم الحديث (٢٦٤١) وحسنه.

والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق؛ فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الأصل العظيم.

وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمر كثيرة، منها بل أعظمها:

أولاً: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمَكُونُ﴾ (الأعراف: ١٨٠) فالتأمل في أسمائه وصفاته ﷺ من منهج الوسطية والإلحاد في أسمائه وصفاته خروج عن منهج الوسطية الذي رسمه القرآن: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠) والذين يصفون الله بغير ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، يلحدون في آيات الله، وهذا انحراف عن الصراط المستقيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ (فصلت: ٤٠) ولذلك فإن الحرص على معرفة أسماء الله الحسنى وفهم معانيها يزيد الإيمان.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها، دخل الجنة»^(١) أي من حفظها، وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون فاعلم: أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته؛ معرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه وقوي يقينه، فينبغي للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه

(١) البخاري مع الفتح، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم (٢١٨/١١)، رقم الحديث (٦٤١٠).

وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله^(١).

ويعجبني في هذا المقام كلام نفيس للعلامة ابن القيم رحمته الله حيث يقول: (ومشهد الأسماء والصفات من أجلّ المشاهد، والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنی والصفات العلی ومرتبطة بها، وإن كل ما في العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها، فاسمه الحميد المجيد، يمنع ترك الإنسان سدى مهملأ معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وهكذا فكل اسم من أسمائه له موجبات وله صفات لا ينبغي تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسمائه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله ويحلم عنه ويتوب عليه ويسامحه بموجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمده بنفسه ويحمد به أهل سمواته وأهل أرضه، وما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما، ومن آثارهما: مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات أو المسامحة عن الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال عيسى عليه السلام في القرآن: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُهِنُّمُ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨) أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح جهلاً بقدر الحق؛ بل أنت عليهم بحقك، قادر على استيفائه حكيم في الأخذ به، فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر يتبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو في كمال الأسماء والصفات والأفعال وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة والآيات الباهرة.

والله سبحانه دعا عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته وأمرهم بشكره ومحبته وذكره وتعبدهم بأسمائه الحسنی وصفاته العلی لأن كل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر

(١) انظر: التوضيح والبيان (٤١).

فلا يحجبه اسم عن اسم آخر، كما لا يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الحليم الرحيم) أو يحجبه عبودية اسمه (المعطي) عن عبودية اسمه (المانع) أو عبودية اسمه (الرحيم، العفو، والغفور) عن اسم المنتقم أو التعبد بأسماء (البر، والإحسان، واللطف) عن أسماء العدل والجبروت، والعظمة والكبرياء وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠) والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد^(١) وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويشنو عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

فالله تعالى يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليم يحب كل عليم وهو (جواد) يحب كل جواد، (وتر) يحب الوتر (جميل) يحب الجمال (عفو) يحب العفو وأهله (حيي) يحب الحياء وأهله (بر) يحب الأبرار (شكور) يحب الشاكرين (صبور) يحب الصابرين (حليم) يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح خلق من يغفر لهم ويتوب عليهم ويعفو عنهم، وقدر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه المبغوض له، ليترتب عليه المحبوب له المرضي له^(٢).

وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة وفي النفس البشرية وفي الكون كله واضح لا يحتاج إلى دليل، إلا أن الاهتمام إلى تلك الآثار أو الانتباه لها يتوقف على توفيق الله تعالى، بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته التي وسعت كل شيء فلو فكر الإنسان في هذا الكون الفسيح وفي نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها، ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً تعجز عن التعبير عنها قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٦﴾ (المؤمنون: ١١٥-١١٦) ومما يدل ويؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما ثمره أسماء الله وصفاته في قلب المؤمن من زيادة الإيمان ورسوخ في اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التي تحفظه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة^(٣).

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/٤٠).

(٣) انظر: دراسات في مباحث توحيد الأسماء والصفات، للتبليبي (١٤ - ١٥).

فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فلكل اسم من أسماء الله تأثير معين في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما تضمنه واستشعر ذلك، تجاوز مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح فمثلاً: عِلْمُ العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبايح، ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه^(١).

وكذلك معرفته بجلال الله وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى وجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية فرجعت العبودية إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها^(٢).

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب: هي أكمل الأحوال وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقاداً راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبهه والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين^(٣).

لكل صفة من صفات الله أثر في قلب المؤمن.

وقد يظن بعض الذين يدعون العلم، وممن لا حظ لهم من علوم الشريعة، أن معرفة

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/٩٠).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢/٩٠).

(٣) انظر: القواعد الحسان، للسعدي، (١٣٠).

أسماء الله وصفاته لا تؤثر في الإيمان بالله من حيث الزيادة والنقصان ولا تؤثر في القلوب، ولذلك لا فائدة من معرفتها أو جهلها أو إثباتها أو إنكارها، وقد توسع في هذا الجانب الفلاسفة الذين وصفوا الله تعالى بصفات من عند أنفسهم وأنكروا وجحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فأنحرفوا عن منهج الوسطية ووقعوا في الإفراط والتفريط وابتعدوا عن الصراط المستقيم ومنهج الاعتدال الذي بيّنه القرآن الكريم.

ومما لا ريب فيه أنه ليست هناك صفة لله في القرآن أو في السنة إلا وقد ساقها الله تعالى لحكمة ومنفعة وغاية، ولولا ذلك لما ساقها ولما ذكرها لأن كلامه وكلام رسوله ينزه عن العبث واللغو والحشو. ومن ظن أن الله يحشو كلامه بما لا فائدة في ذكره أو لا غاية من ورائه أو لا أهمية له فقد اتهم الله بالنقص واللغو.

ولبيان أن لكل صفة من صفات الله أثراً في قلب المؤمن سنبين ذلك ببعض التفاصيل، من حيث إن لكل صفة في القلب أثراً يتضح في السلوك البشري، فلا توجد صفة من صفات الله إلا ولها أثر وفائدة، وإنما الذي ينكر الأثر هم الجهلة والجاحدين، أما علماء أهل السنة والجماعة فبينوا ذلك الأمر بياناً أوضح من الشمس في رابعة النهار.

أثر صفة العظمة:

وهذه الصفة مشتقة من اسمه تعالى العظيم، والعظمة صفة من صفاته لا يقوم لها خلق، والمقصود أن عظمة الله سبحانه لا يمكن أن يتصف بها أحد من خلقه والله خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يعظم لِمَال، ومنهم من يعظم لعلم، ومنهم من يعظم لسلطان، ومنهم من يعظم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يعظم لمعنى دون معنى، والله ﷻ يعظم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرف حق عظمته سبحانه أن لا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضها الله.

فإذا شعر العبد بعظمة الله خاف مولاه واتقاه ورغب في مرضاته ﷻ، والحديث الدال على صفة العظمة قول رسول الله ﷺ: «يقول تبارك وتعالى: العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر (١٣٩٧/٢)، رقم الحديث (٤١٧٥)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

أثر صفة يد الله:

ومن الصفات التي جحدتها قلوب النفاق وأنكرها الزنادقة قديماً، وصف الله نفسه سبحانه بأن له يَدَيْنِ، وهذا ما قد مدح الله به نفسه في آيات كثيرة من كتابه، وقد مدحه بها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة وهي تدخل في صفات الله الذاتية، وقد بين سبحانه في الآيات والأحاديث عظمة عطائه وسعة فضله وأن يده الكريمة جل وعلا دائمة العطاء والإنفاق، وفي مجال قوته وجبروته وبطشه وكمال قدرته وبيان عظمته أن السموات والأرض يوم القيامة تكون يمينه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

ولا شك أن أثر الإيمان بهذه الصفة في قلب المؤمن عظيم؛ لأنه يورث القلب المهابة لله والخوف منه وتعظيم أمره وشأنه، وأنه الملك الذي قهر الملوك، وأنه لا مفر من قبضته، ولا ملجأ منه إلا إليه.

أثر اسم الله الحميد:

وهذا الاسم يتضمن لصفة الحمد بكل أنواعه، فهي صفة ذاتية لله ﷻ لا تنفك عنه وتظهر آثارها باستمرار في كل لحظة، ومعناها أنه سبحانه مستحق لكل أنواع الحمد، لأنه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وليس ذلك لأحد سواه سبحانه، كما يبدو لي أن العبد لا بد أن يسلك في حياته سلوكاً يحمد عليه، لأن أعماله جميعاً يجب أن تكون خالصة للحميد، ولو أن كل فرد تحرى أن يكون عمله حميداً لصلح أمر الناس في الدنيا والآخرة، ولاختفت المنازعات فيما بينهم والخصومات ولعاشوا جميعاً إخوة في الله متحابين^(١).

أثر اسم الله المهيمن:

ومن آثار هيمنته سبحانه أنه يملك أن يتصرف في خلقه كيف يشاء؛ لأنه ملكهم والمالك من حقه أن يتصرف في ملكه بكافة أنواع التصرف، من نماذج هذه التصرفات ما ذكره الله تنبيهاً وتذكيراً باستمرار وشمول هيمنته على خلقه ﷻ^(٢).

(١) انظر: مفهوم الأسماء والصفات، مقال في مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٩): ٧٠ - ٧٩.

(٢) المرجع السابق (٧٠ - ٧٩).

قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَلْنَا مِنْ هَٰؤُلَاءِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦٦﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿١٦٧﴾ قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَيَّ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ يَفْقَهُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الأنعام: ٦٣ - ٦٥) وإذا شعر القلب بهيمنة ربه عليه لجأ إليه وطلب العون منه لدفع ضرر أو جلب نفع، والآيات في هذا الباب كثيرة، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ.

أثر صفة العلو في قلب العبد:

إذا أيقن العبد أن الله تعالى فوق السماء، عال على عرشه بلا حصر ولا كيفية، وأنه الآن في صفاته كما كان في قدمه، كان لقلبه في صلاته وتوجهه ودعائه.

ومن لا يعرف ربه بأنه فوق السماء على عرشه، فإنه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده، ولكن ربما عرفه بسمعه، وبصره وقدمه وتلك بلا هذا معرفة ناقصة، بخلاف من عرف أن إلهه الذي يعبده فوق الأشياء، فإذا دخل في الصلاة وكبر وتوجه قلبه إلى جهة العرش منزهاً له تعالى، مفرداً له كما أفرد في قَدَمِهِ وألوهيته واعتقد أنه في علوه قريب من خلقه، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته ومشيتته وذاته فوق الأشياء وفوق العرش، ومتى شعر قلبه بذلك في الصلاة أشرق قلبه واستنار وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان، وعكفت أشعة العظمة على قلبه وروحه ونفسه، فانشرح لذلك صدره، وقوي إيمانه، ونزّه ربه عن صفات خلقه من الحصر والحلول، وذاق حينئذ شيئاً من أذواق السابقين المقربين^(١).

أثر صفة السمع:

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ (المجادلة: ١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمد لله وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة

(١) انظر: النصيحة في صفة الرب جل وعلا للواسطي (٥٠).

إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾^(١).

أقول: لو أن دارس الأسماء والصفات ومدرسيها تأملوا ما دلت عليه هذه الصفات، وأشعر المرء نفسه أنه مراقب في جميع أحواله وأن ما ينطق به لسانه يسمعه خالقه من فوق سبع سموات في حينه وأنه سيجازيه على ذلك لانعكس على سلوكه وأخلاقه وأعماله وسيرته في مجتمعه، ولظهرت الأخلاق الربانية وأصبح الشخص لله ولياً يمشي على وجه الأرض، ولشعرنا أن الأخلاق الرفيعة ثمرة من ثمرات التوحيد، وبقدر ما يملك العبد من الإيمان والتوحيد ينعكس ذلك ويظهر على أخلاقه.

ولا بد أن نراعي قواعد السلف عند تأملنا وتفكرنا في أسماء الله وصفاته التي تزيدنا إيماناً بالله العلي العظيم، ويعجبني في هذا المقام أن أكتب ما كان يقوله ويكرره شيخنا الفاضل عبد المحسن العباد في دروسه بالمدينة النبوية (المذهب الحق وسط بين الطرفين في قضية الإثبات، فلا نفي ولا تأويل، وفيه التنزيه فلا تشبيه ولا تمثيل، وكل من المشبهة والنفاة جمعوا بين إساءة وإحسان).

فالمشبهة: أحسنوا إذ أثبتوا فلم ينفوا الصفات، وأسأؤوا إذ شبهوا ومثلوا، وأهل السنة والجماعة جمعوا بين الحسنين وسلموا من الإساءتين، فالإحسان الذي عند الطرفين عندهم، وليس عندهم ما عند كل من الإساءة وذلك أنهم أثبتوا ما أثبت في الكتاب والسنة من الصفات، ونزهوا الله عن مشابهة خلقه، وكما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) فأول الآية تنزيه وآخرها إثبات، فمثل هذا المذهب الحق بالنسبة إلى الطرفين المتقابلين كاللبن السائغ للشاربين الذي يخرج من بين فرث ودم^(٢).

ثانياً: تدبر القرآن على وجه العموم:

فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢) وكذلك إذا

(١) البخاري مع الفتح، كتاب التوحيد، باب وكان الله سمياً بصيراً، (١٣/٣٨٤).

(٢) عشرون حديثاً من صحيح مسلم، لعبد المحسن العباد (١٧٧ - ١٧٨).

نظرنا إلى انتظامه وإحكامه؛ وأنه يصدق بعضه بعضاً ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف: تيقن أنه تنزيل من حكيم حميد: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢) وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه - من التناقض والاختلاف - أموراً كثيرة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَقَةَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢) وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟! ولهذا كان المؤمنون الكُمَّل يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا﴾ (آل عمران: ١٩٣).

ثالثاً: معرفة أحاديث النبي ﷺ وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله:

كلها من محضلات الإيمان ومقوياته، فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ازداد إيمانه ويقينه، وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين، فقد وصف الله الراسخين في العلم، الذين حصل لهم العلم التام القوي الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام، ولهذا كانوا سادة المؤمنين الذين استشهد الله بهم واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَقْسَمُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ بِالْحَقِّ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ أَمَّا بَدْرٌ أَمَّا بَدْرٌ أَمَّا بَدْرٌ أَمَّا بَدْرٌ أَمَّا بَدْرٌ﴾ (آل عمران: ٧).

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع، فكلها من عند الله؛ وما منه، وما تكلم به وحكم به كله صدق وحق. وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (النساء: ١٦٢).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨) ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح استشهد بهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥١).

(الروم: ٥٦) وأخبر تعالى في عدة آيات أن القرآن آيات للمؤمنين وآيات للموقنين، لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره - من العلم واليقين والإيمان - بحسب ما فتح الله عليهم منه، فلا يزالون يزدادون علماً وإيماناً و يقيناً^(١).

رابعاً: ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه - معرفة النبي ﷺ - ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة الحق كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٩).

فمعرفة ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان بما لم يؤمن به، وزيادة الإيمان بما آمن به. وقال تعالى حاثاً لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُّتَّبِعِينَ وَمَا يَنْفَعُكُمْ شَيْءٌ مِّنْكُمْ وَلَئِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سبا: ٤٦).

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ حَسْبُكَ﴾ (القلم: ١-٤) فهو ﷺ أكبر داعٍ للإيمان في أوصافه الحميدة، وشماله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة فهو الإمام الأعظم، والقُدوة الأكمل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧).

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي بِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي نَادَى بِهَا الْمُؤْمِنِينَ وَخُلِقَ لَهَا اسْمٌ خَيْرٌ مِّنْهَا فَنَادَى بِهَا بِهَا وَهُوَ اللَّهُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران: ١٩٣) أي: إيماناً لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله - توسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العالية، فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَذْبَانِ﴾ (آل عمران: ١٩٣).

(١) انظر: التوضيح والبيان (٤٢ - ٤٣).

ولهذا كان الرجل المنصف - الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه - يبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم - مجرد ما يرى وجهه الكريم - يعرف أنه ليس بوجه كذاب وقيل لبعضهم: (لَمْ بَادِرْتِ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ رِسَالَتَهُ؟ فَقَالَ: مَا أَمْرٌ بِشَيْءٍ، فَقَالَ الْعَقْلُ، لَيْتَهُ نَهَى عَنْهُ وَلَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ فَقَالَ الْعَقْلُ لَيْتَهُ أَمَرَ بِهِ)^(١).

فاستدل هذا العاقل الموفق - بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة - على رسالته؛ فبادر إلى الإيمان به^(١) ولهذا استدل ملك الروم هرقل - لما وصف له ما جاء به الرسول ﷺ وما كان يأمر به، وما ينهى عنه - استدل بذلك أنه من أعظم الرسل؛ واعترف بذلك اعترافاً جلياً ولكن منعتة الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه؛ كما منعت كثيراً ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقاً، وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء، وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة عاجلاً وأجلاً. ولهذا السبب الأعظم كان المعتنون بالقرآن حفظاً ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة أعظم إيماناً و يقيناً من غيرهم، وأحسن عملاً في الغالب^(٢).

خامساً: ومن أسباب الإيمان ودواعيه التي بيّنها القرآن الكريم التفكير في الكون، وفي خلق السماوات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات المتنوعة قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ (آل عمران: ١٩٠) وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ (الذاريات: ٢١).

فإن التأمل والتفكير في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدالة على قدرة خالقها وعظمته؛ وما فيها: من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الأبواب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته؛ وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة

(١) التوضيح والبيان (٤٩).

(٢) شجرة الإيمان، للسعدي (٤٩).

على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره؛ وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره^(١)، وإذا تأملنا في مخلوقات الله كلها نجدنا مضطرة ومحتاجه إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين خصوصاً ما تشاهده في نفسك من أدلة الافتقار وقوة الاضطرار، وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد فإن الدعاء مخ العبادة وأصلها^(١) قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (فاطر: ١٥) كذلك التفكير في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين، كل هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعى الله الرسل والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (البقرة: ١٧٢) فالإيمان يدعو إلى الشكر والشكر ينمو به الإيمان فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

سادساً: ومن أسباب دواعي الإيمان التي بينها القرآن الكريم الإكثار من ذكر الله في كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب ويغذيها وينميها، وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوي إيمانه؛ كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه. قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ (الأحزاب: ٤١) وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب: ٢١).

سابعاً: ومن الأسباب الجالبة للإيمان التي بينها القرآن الكريم السعي والاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى خلقه قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴿٢٢﴾﴾ (لقمان: ٢٢) وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣).

فعلى العبد: أن يعبد الله كأنه يشاهده، فإن لم يقوَ على هذا استحضر أن الله

(١) التوضيح والبيان (٥١).

يشاهده ويراه؛ فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه ولا يزال يجاهد نفسه ليتحقق هذا المقام العالي، وبالتالي يقوى إيمانه ويقينه ويصل في ذلك إلى حق اليقين وطريق المحسنين كما جاء في القرآن بيان صفاتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَأَخْذِينَ مَا ءَأْتَاهُمْ رَبُّهُمْ ءِذْهُمْ كَأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَنْعَامِ هُمْ يَسْتَفْقِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾﴾ (الذاريات: ١٥-١٩). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْمَعْفَىٰ عَنِ النَّاسِ ءَوَالِدًا يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (آل عمران: ١٣٤).

وبذلك يتضح لنا صفات المحسنين ويكون الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع هو من الإيمان ومن دواعي زيادته، والجزاء من جنس العمل، فكما أحسن إلى عباد الله وأوصل إليهم من بره ما يقدر عليه، أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضلها: أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه وإخلاص العمل له^(١).

ثامناً: ومن الأمور التي تقوي الإيمان وتزيده ما ذكره الله تعالى في سورة المؤمنين من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَن ابْتَغَىٰ زَوَاةَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ (المؤمنون: ١-١٠) فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه؛ كما أنها من صفات الإيمان وداخله في تفسيره كما تقدم، فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله: من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان ونموه^(١).

وقد سمي الله تعالى الصلاة إيماناً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ ءِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣) ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ﴾ (سورة الصلوة: ١٠) الصَّلَاةُ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) فحشاء ومنكر ينافي الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله:

(١) التوضيح والبيان (٥٤).

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (العنكبوت: ٤٥) والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، فرضها ونفلها، وقد بين النبي ﷺ كونها برهان على إيمان صاحبها فهي تغذي الإيمان وتنميها، والإعراض عن اللغو الذي هو كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير يفعلونه، ويتركون الشر قولاً وفعلًا - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان ويثمر.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض «اجلس بنا نؤمن ساعة» فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية، فيتجدد بذلك إيمانهم، وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنى، ولا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته.

فإن المؤمن ينهى النفس عن الهوى إجابة لدواعي إيمانه وتغذية له، كما أن رعاية العهود والأمانات وحفظها من علامات الإيمان، وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه فانظر حاله: هل يرضى الأمانات كلها مالية أو قولية، أو أمانات الحقوق؟ وهل يرضى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟ إذ لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك. وحتماً بالمحافظة على الصلوات: حدودها، وحقوقها، وأوقاتها - لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري في بستان الإيمان فيسقيه وينمي ويؤتي أكله كل حين.

تاسعاً: ومن دواعي زيادة الإيمان وأسبابه الدعوة إلى الله وإلى دينه والتواصي بالحق والتواصي بالصبر؛ والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره، ألم تر أن الله تعالى أقسم بالعصر أن جنس الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين تكمل بهما النفس، والتواصي بالحق - الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق - وبالصبر على ذلك كله؛ يكمل غيره.

وذلك: أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقومات الإيمان وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوصل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه^(١) قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا

(١) التوضيح والبيان (٥٨).

وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّمَا يَنزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٩﴾ (فصلت: ٣٣-٣٦) ومن حرص على نصيح الناس ودعوتهم إلى دين الله لا بد أن يجازيه الله ويؤيده بنور منه، وروح وإيمان وقوة توكل، فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل بهما النصر على الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن^(١) قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (النحل: ٩٩) والمتصدي لنصرة الحق، لا بد أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه.

عاشراً: ومن أهم مواد الإيمان ومقوماته توطين النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان من شعب الكفر والنفاق والفسوق والعصيان. فقد ذكر الله ﷻ في كتابه الأسباب المقوية المنمية للإيمان ووضحها رسول الله ﷺ، كذلك بين المولى ﷺ الموانع والعوائق وأرشد إلى دفعها: وهي الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القاذحة في علوم الإيمان المضعفة له، والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان، فإن الإرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبهه والسعي فيه، لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها من رغبة النفس في الشر، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء. فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات وفتن الشهوات تم إيمانه وقوى يقينه^(٢).

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين: أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً وحالاً. والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقصها أو ينقصها من الفتن الظاهرة والباطنة؛ ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته^(١). قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الَّذِي اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٦١﴾﴾ (الأعراف: ٢٠١) أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان؛ فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه، فردوا إلى

(١) التوضيح والبيان (٥٨).

(٢) التوضيح والبيان (٦١).

حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً، وإخوان الشياطين: ﴿يَمْدُونَهُمْ فِي الْفِتْنَةِ تَدْرَأُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٢).

الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في إشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك؛ ويحق عليهم الخسار والبوار، وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان تبين أن ما جاء به القرآن ووضحه سيد الأنام ﷺ هو الصراط المستقيم والاستقامة والاعتدال بعيداً عن ما وقع فيه الملاحدة من الزور والبهتان، ووقع فيه الفلاسفة من تصورات خاطئة مريضة في أسماء الله وصفاته وأفعاله وذاته.

ولقد وقع الناس بين إفراط وتفريط وإنكسار وغلو، فأكرم الله البشرية بهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ففي جانب الإيمان بالله تعالى جاء القرآن بالمنهج الوسط الذي تجسدت فيه ملامح الوسطية من حكمة واستقامة واعتدال وعدل وبيئية.

وقبل الانتهاء من مبحث الإيمان وأسباب زيادته رأيت من باب الفائدة والحث على استيعاب وفهم هذا الموضوع المهم في حياة الناس أن أتطرق إلى فوائد الإيمان وثمراته كما جاءت في القرآن، موضّحاً الآثار والفوائد والثمرات العاجلة والآجلة في القلب والبدن والراحة والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وذكر القرآن الكريم لهذه الفوائد والثمار يرسم لنا الصورة الياقة الحية في وسطية القرآن في قضية الإيمان.

ثالثاً: فوائد الإيمان وثمراته:

إن من حكمة الله الربانية أن جعل قلوب عباده المؤمنين تحس وتتذوق وتشعر بثمرات الإيمان لتندفع نحو مرضاته والتوكل عليه ﷻ، فإن شجرة الإيمان إذا ثبتت وقويت أصولها وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها، عادت على صاحبها وعلى غيره بكل خير عاجل وآجل في الدنيا والآخرة، وثمار الإيمان وثمراته وفوائده كثيرة، قد بينها الله ﷻ في كتابه الكريم فمن أعظم هذه الفوائد والثمار:

أولاً: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وتسابق فيه المتسابقون وأعظم ما حصل عليه المؤمنون، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ

اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٢-٦٣) فكل مؤمن تقى، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر، وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل. وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل، بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى فإن التقوى من تمام الإيمان.

ثانياً: الفوز بمرضاة الله ودار كرامته قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعَثْنَا مِنهُنَّ آيَاتٍ بَعْضِنَآ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَرَزَقُوا الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ (التوبة: ٧١-٧٢) فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملاوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.

ثالثاً: ومن ثمرات الإيمان أن الله يدفع عن المؤمنين جميع المردة، وينجيهم من الشدائد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج: ٣٨) أي يدفع عنهم كل مكروه، يدفع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها، ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس عليه السلام وأنه: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨) إذا وقعوا في الشدائد؛ نجيناهم كما أنجينا يونس، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «دعوة أخي يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كبرته لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَمِنْ أَمْوَالِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤).

فالمؤمن المتقي يسر الله له أموره ويسره لليسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً؛ ويرزقه من حيث لا

يحتسب، وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة^(١).

رابعاً: ومنها أن الإيمان والعمل الصالح الذي هو فرعه يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧).

ذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزقه الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هي الحياة الطيبة فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

خامساً: ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والإخلاص ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل، مثل قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِزْجًا مِّنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ (الانباء: ٩٤) أي لا يجحد سعيه ولا يضيع عمله؛ بل يضاعف بحسب قوة إيمانه وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴿١١١﴾﴾ (الإسراء: ١٩) والسعي للآخرة هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدني منها، من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ فإذا تأسست على الإيمان، ونبتت عليه كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة. وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره فإنه غير مقبول قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبًا مِّنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفرقان: ٢٣) وذلك لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله الذي روحه الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٥) فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿لَٰبِنٌ أَشْرَكَتْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر: ٦٥) ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٨٨).

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في

(١) التوضيح والبيان (٦٧).

الإسلام والإيمان يَجِبُ ما قبله من السيئات وإن عظمت، والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه والمنفقة له تجب ما قبلها^(١).

سادساً: ومن ثمرات الإيمان أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم ويهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (يونس: ٩) وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

ذكر الشوكاني^(٢) في تفسير هذه الآية: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها ومهون لها وذلك لقوة إيمانه وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَلْتَأْهِمُوا بِالْمُوتِ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤)^(٣).

سابعاً: ومن ثمرات الإيمان ولوازمه وفوائده وخيراته من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم: ٩٦) أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الشاء والدعاء له حياً وميتاً، والافتداء به، وحصول الإمامة في الدين^(٤).

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤) فبالصبر واليقين

(١) التوضيح والبيان (٧٥).

(٢) هو الإمام محمد بن علي الشوكاني، ثم الصنعاني القاضي، محدث وفقه وأصولي ومفسر، واسم تفسيره فتح القدير، توفي (١٢٥٠هـ)، انظر: مناهج المفسرين (٥٠).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٢٣١/٥).

(٤) التوضيح والبيان (٧٦).

اللذين هما رأس الإيمان وكماله نالوا الإمامة في الدين^(٢).

ثامناً: ومنها قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١) فهم أعلى الخلق درجة عند الله وعند عباده في الدنيا والآخرة وإنما نالوا هذه الرفعة، بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان.

تاسعاً: ومن ثمرات الإيمان حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٣) فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة: ٢٥) فلهم البشارة المطلقة والمقيدة، ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢) ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام: ٤٨) فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشور وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (يونس: ٦٤).

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣١﴾ نَحْنُ أَوْلِيَٰكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣٢﴾ تَزُولُ مِن غَوْرٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٣﴾﴾ (فصلت: ٣٠ - ٣٢).

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا اللَّهُ وَءَامَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِيكُمُ الْفَلَاحَ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ (الحديد: ٢٨) فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (الحديد: ١٢).

فالمؤمن من يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه وإذا أطفئت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم، وكذلك رتب المغفرة

على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب^(١).

عاشراً: ومن ثمرات الإيمان حصول الفلاح الذي هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب والهدى الذي هو أشرف الوسائل، كما قال تعالى بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٥﴾ (البقرة: ٥).

فهذا هو الهدى التام والفلاح الكامل، فلا سبيل إلى الهدى والفلاح للذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات^(١).

الحادي عشر: ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات:

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ (الذاريات: ٥٥).

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ (الحجر: ٧٧).

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه، علماً وعملاً وكذلك معه الآلة العظيمة والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضاً: فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك فلا يستغرب عدم قبولهم للحق واتباعه له، ولهذا يذكر الله - في سياق رفض الكافرين تصديق الرسول ﷺ وقبولهم الحق الذي جاء به - السبب الذي أوجب لهم ذلك وهو الكفر الذي في قلوبهم، لأن الحق واضح وآياته بيّنة واضحة والكفر أعظم مانع يمنع من أتباعه، أي فلا تستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تنزل دأب كل كافر^(٢).

الثاني عشر: ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم، قال تعالى:

(١) التوضيح والبيان (٧٩ - ٨٠).

(٢) انظر: التوضيح والبيان (٨١).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ (الحجرات: ١٥) أي دفع الإيمان الصحيح الريب والشك، وأزالهما بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقىها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء فليس لهذه العلة المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان. ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يزال الناس يسألون حتى يقال هذا: الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليقل آمن بالله»^(١). وفي رواية «فليستعذ بالله وليتته»^(٢).

وبهذا بين صلى الله عليه وسلم الدواء النافع لهذا الداء المهلك وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه النوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الأمنين. وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة أعظمها العلم أنه منافي للحق، وكل ما نقض الحق فهو باطل: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْمُنِيُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢).

الثالث عشر: ومنها أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلزم بهم، من سرور وحزن وخوف وأمن وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها؛ فيلجؤون إلى الإيمان عند الخوف فيطمنون إليه ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٧٦) ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ وَقَظِيلٌ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٧٧) ﴿آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤﴾.

لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله، والثقة بوعدده، ويلجؤون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها؛ وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق، وكذلك يحرصون على تكميلها، والقيام بكل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها، أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها، أن يتم لهم منها ما انتقصوه منها: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَعْرِزَاتِ

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، (١/١١٩).

(٢) المرجع السابق (١/١٢٠).

وَهُمْ لَهَا سَاقِطُونَ ﴿٦١﴾ (المؤمنون: ٦١) ويلجؤون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، والقيام بما يقدر عليهم من الحسنات لجبر نقصها قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان ومفرعهم إلى تحقيقه ودفع ما ينافيه ويضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومنه^(١). وخوفاً من الإطالة نقتصر على هذه الثمرات العظيمة التي بينها المولى ﷺ، وبذلك نستيقن أن كتاب الله جاء تبياناً لكل شيء، وعرض قضية الإيمان من جوانبها المتعددة النافعة للناس وبين وسائل زيادة الإيمان، ورجبنا فيه بذكر فوائده وثماره بحكمة بالغة تليق بالحكيم العليم جل وعلا.

وبين المولى ﷺ في كتابه حقيقة الإيمان بأنه اعتقاد بالجنان ونطق باللسان، وعمل بالأركان ووضعنا على الصراط المستقيم وسلمت عقول المسلمين وقلوبهم من أمراض التعطيل والتشبيه، والإفراط والتفريط، ووقع أهل البدع في الانحراف عن جادة الصواب وطريق أهل الاستقامة؛ لأنهم ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان من علماء وفقهاء ومحدثين.

(١) التوضيح والبيان (٨٥).